المحاضرة الثانية

اول عهدي بالجاحظ[1]

- ٢ -

كان حقاً عليّ بعد ان فرغت من الكلام على ابي الطيب المتنبي وهو اول شاعر حفظت من شعره في حداثة السن ما يصقل الخيال ويشحذ العاطفة و ينبه الشعور ان ابدأ بالكلام على عبدالله بن المقفع وهو اول كاتب استظهرت من كلامه مايعين على تقويم البيان وصحة التعبير وجودة السبك ، فما استضأت الا بضيائه ولا استرشدت الا برشده ، انه الكاتب الذي صلحت أساليبه لكل دهر ، واظن ان كثيراً من المتأدبين استعانوا بابن المقفع على صناعة الترسل ، على اني لا أرى ان يقتصر المتأدب على كاتب واحد فلا يغرف الا من بحره ، وانما أرى ان يتنقل من كاتب الى كاتب دون شيء من التقيد فاذا فعل هذا استطاع ان يأخذ عن كل كاتب ما يطيب و يقتبس عنه ما يحسن حتى يصبح صاحب أسلوب ينفرد به .

نعم كان حقاً عليّ ان ارجع الى الآثار التي ابقاها ابن المقفع في خاطري فابعث هذه الآثار من مراقدها ولكني لا أدري ما الذي حملني على ايثار الكلام على الجاحظ ، افآثرت هذا الكلام لان الجاحظ أبعد مذاهب وأوسع آفاقاً فان الباحث يجد في نواحيه مجال القول ذا سعة ولكن هل يجد لساناً قائلاً واي لسان يحيط بوصف الجاحظ واي بحث يفضي بصاحبه الى تصوير عبقريته بمجامعها ، وكيف كان الامر فقد عولت على ان امضي القول في الجاحظ في سنتنا هذه ، وقبل ان أحاضر بشيء من هذه الناحية رأيت ان استثير الذاكرة حتى اقول لكم : كيف اتصلت بالجاحظ وكيف ذهبت في الولع به كل

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مذهب وقد يفتح لكم رجوعي الى الماضي باباً من ابواب الجاحظ تعرفون منه اليسير من خصائص عبقريته فيستنهضكم هذا اليسير من اليوم لمطالعة فصوله واملاء خواطركم من طرائفها ولطائفها .

من عشر سنين اشتريت كتاب (الكامل) للمبرد وعلى هامشه فصول مختارة من كتب ابي عثمان قرأت اول هذه الفصول وهو مقتطف من كتابه في الحاسد والمحسود وقد فتنت بهذا الفصل الفتنة كلها حتى وصلت الى قوله :

« وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك » .

فاستوقفني هذا الكلام فقلت في نفسي : ما اعلم صاحبه بطبيعة البشر ، ما الصقه بمداخلهم ومخارجهم ، ما اكشفه لاغطية قلوبهم يكاد لا يخفى عليه شيء مما تشتمل عليه جوانحهم ، انه لشديد التدقيق يقرأ على صفحات الوجوه ما كتب في اعماق الصدور . نعم لما وصلت الى صفات الحاسد وهي : تغير اللون وتخوص العين واخفاء السلام وما شابه ذلك قلت في نفسي : لا يخلو الجاحظ من ان يكون محسوداً في عصره حتى كان يقع نظره على حاسده فيتأمل في وجهه ، ومن منا لا يعرف الحاسد ، ومن منا لم ير تخوص هذه العين وتغير هذا اللون في كل يوم ، لقد قلت في نفسي لا يخلو الجاحظ من ان يكون محسوداً في عصره حتى كان الصيف المنصرم وقد عكفت على مطالعة كتبه ليتهيأ لي الكلام عليه فمن الكتب التي طالعتها : كتاب المحاسن والاضداد واليكم ماجاء في مقدمة هذ الكتاب فلا بأس بان اتلو عليكم هذا الكلام حتى تأنسوا من اليوم بكلام الجاحظ وتألفوا طراز انشائه قال ابو عثمان :

اني ربما الفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة انسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيهم جماعة من اهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته وفصاحته واكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يهتاجون عند ذلك لهتياج الابل المغتلمة فان امكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي الّف له فهو الذي قصدوه وارادوه ، وان كان السيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً واعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب والفوا من اعراضه وحواشيه كتاباً واهدوه الى ملك آخر ومشوا اليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي ... وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه فأترجمه باسم غيري واحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني اولئك القوم باعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ويكتبونه بخطوطهم و يصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة بأتم بهم قوم فيه لانه لم يترجم باسمي ولم ينسب الى تأليفي ...

لما قرأت هذه المقدمة سهل عليّ ان ادرك السر في ابداع الجاحظ في وصف الحاسد وفهمت حينئذ ماقاله احد كتاب الفرنجة الكبار : روّض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها ، فالجاحظ ابدع في وصف الحاسد ومعظم هذا الابداع ناشيء عن انه وصف شيئاً كان يشعر به ويعوذ بالله من شره ولم نجد الفرق في التأثير بين الكتّاب مثلاً او بين الشعراء ، اني اعتقد ان هذا الفرق انما مصدره في الأغلب من الأحوال قوة الشعور وضعفه او صدقه وكذبه .

ولكن هل فضلت الكلاء على الجاحظ في سننا هذه لانه برّز في وصف الحاسد فلو كان الامر كذلك فما اضيق مذاهب الجاحظ ؟

فلنستثر الذاكرة مرة ثانية ، كنت في هذا الصيف أطالع كتاباً فرنسياً اسمه (الطريقة الادبية) تكلم صاحب هذا الكتاب على خطاب خطبه (رنان) في السوربون في ٢٩ آذار سنة ١٨٨٨ قال صاحب الكتاب وهو يعني (رنان) :

لقد بيّن الخطيب ان روح الاسلام الحقيقي انما هو مخالف للعلم ولئن نشأ في العالم الاسلامي من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر اصحاب فكر واهل عقول راجحة فهذا سببه ان الاسلام في تلك العصور لم ينبسط سلطانه بعد فان الخلفاء اللامعين الذين كانوا في عصر (الكارولنجيان) لم يتكامل اسلامهم وفلسفة اليونانيين العقلية هي التي اضاءت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على عهدهم وكذلك الامر في الاندلس على زمن ابن رشد فقد كان اليونانيون وحدهم ينبوع العلم فالنهضة لم تكن عربية ولا اسلامية وفي اليوم الذي اشتد فيه الاسلام اي من بعد سنة ١٢٧٥ بوجه التقريب انحطت عقول المسلمين انحطاطاً يؤسف ويحزن ثم ذكر صاحب هذا الكتاب كلاماً لزنان وهذا هو :

« ان الذي يميز العالم الاسلامي انما هو اعتقاد المسلمين ان البحث لا طائل فيه ولا شأن له وانه قد يؤدي الى الكفر ، فعلم الطبيعة يؤدي الى الكفر لان هذا العلم ينازع الله سلطانه ، وعلم التاريخ يؤدي الى الكفر لانه اذا امتد الى العصور التي جاءت قبل الاسلام احيا اضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تؤدي الى النتائج الآتية : اي يصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل فكملة : والله اعلم انما هي فصل الخطاب في كل مناظرة اسلامية » .

قرأت هذا الكلام وقلت في نفسي أصحيح ان الاسلام حال دون العلم حتى تغلغلت في كتب الجاحظ وقرأت كتاب (الحيوان) من اوله الى آخره فاهتديت فيه الى أساليب في تحقيق صاحبه وتجربته في امور العلم يحار فيها الانسان فكأن الجاحظ عالم من علماء الحيوان فلا يمر بامر من امور الحيوان سواء أكان هذا الامر صغيراً ام كان كبيراً الا اهتم به ويكفيني في مثل هذا المقام ان اذكر لكم كلمته في التحقيق العلمي وهي تجمع لنا كل مذهبه : ليس يشفيني الا المعاينة ، راظن ان الكلام على هذا التحقيق سيطول فأرجئه الى حينه وهذه ناحية من نواحي الجاحظ الجليلة الشأن فان كلمة مثل هذه الكلمة : ليس يشفيني الا المعاينة انما هي كلمة خالدة في علم الطبيعة وهل علوم الطبيعة الا نتائج المعاينة والتجريب والفرض والمقابلة والتصنيف .

ولم لا أذكر لكم من اليوم أسلوباً من أساليبه في التحقيق حتى تقارنوا بينه وبين علماء الحيوان في عصرنا هذا وحتى تقولوا في انفسكم أفيختلف ابو عثمان عن هؤلاء العلماء . قال وهو يصف الظليم .

باب آخر وهو عندي اعجب من الاول وهو ابتلاعه الجمر حتى ينفذ الى جوفه فيكون جوفه هو العامل في اطفائه ولا يكون الجمر هو العامل في احراقه ، واخبرني ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع اوعيان انه شهد محمد بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبد الله يلقي الحجر في النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدامه فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وكنت قلت له ان الجمر سخيف سريع الانطفاء اذا لقي الرطوبات ومتى اطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد والحجر اشد امساكاً لما يتداخله من الحرارة واثقل ثقلاً والزق لزوقاً وابطأ انطفاءً فلو احميت الحجارة فأحماها ثم قذف بها اليه فابتلع الاولى فارتبت به فلما ثني وثلث اشتد تعجبي له فقلت له لو احميت اواقي الحديد ما كان منها ربع رطل ونصف رطل ففعل فابتلعه فقلت هذا اعجب من الاول والثاني وقد بقيت علينا واحدة وهو ان ننظر أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة ولم يتركنا بعض السفهاء واصحاب الخرق ان نتعرف ذلك على الايام وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعض ندمائه الى سكين فأحمي ثم القاه اليه فابتلعه فلم يجاوز على حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ثم خر ميتاً فمنعنا بخرقه من استقصاء ما اردنا.

فيتبين لكم مما رويته ان الذي يشغل بال الجاحظ انما هو الاستقصاء وهل الاستقصاء خارج عن لوازم العلم فالذي يهم العالم انما هو التنقيب عن الحقيقة.

فقد يكون الجاحظ حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما عصرهم غير عصرنا وادوات تحقيقهم هي غير ادواتنا ولو اطرد العلم في ديارهم لبلغ المبالغ.

ولكن هل آثرت الكلام على الجاحظ لناحيته العلمية او لناحيته الفلسفية فأين نواحيه الأدبية الخالدة على تراخي الأحقاب وما كان هذا العلم وما كانت هذه الفلسفة لولا ادب ابي عثمان. مازلت اقلب النظر في كتب الجاحظ وانا لازداد تقلباً الا ازددت له تهيباً وبه اعجاباً حتى وصلت الى شيء من نواحيه الادبية واعجبها واقنعها انما هي هذه اللغة التي القت اليه طاعتها فصرفها في كل شيء: فاذا كتب في العلم اجرى قلم العلماء واذا كتب في الفلسفة بنى على اصول الفلاسفة واذا كتب في الأدب كتب على اساليب الادباء وعلى مناحيهم وهذه القدرة على اللغة هي التي اوحت اليه مذهبه الأدبي الذي قال فيه: ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين في خطبة او رسالة او في مخاطبة العوام والجار او في مخاطبة اهله وعبده وامته او في حديثه اذا حدث او خبره اذا خبر وكذلك من الخطإ ان يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فان الرجل الذي يقرر مثل هـذا المذهب الأدبي لا بدّ له من ان يطالب نفسه به ذا كتب والجاحظ قرره وطالب به نفسه ·

هذا هو اول عهدي بالجاحظ وهذا هو شيءٌ من الآثار الأولى التي بقيت في البال من قراءة كتبه ولو شئت ان استقصي هذه الآثار لامتد الكلام فما سعة لغته بشيءٍ اذ قسناها الى قدرته على تصوير جلائل الموضوعات وصغائرها فستدركون بعد قراءة كتبه انه لا يتعاظمه شيءٌ من الموضوعات واظن ان القدرة على تصوير صغائر الامور كامور الاكل والشرب واللبس وسائر ما يتعلق بحياتنا الخاصة لا تقل عن القدرة على تصوير اكابر الامور واذا قرأتم غداً كتابه في البخلاء تبينت لكم هذه القدرة على تصوير الدقائق من حياتنا الخاصة وما مرادي في هذه المحاضرة ان أشبع القول في الجاحظ وخصائصه فمثل هذا العمل يستوعب سنتنا كلها وانما غايتي كما قلت لكم ان اصف لكم اول اتصالي بكتبه واول املاء الخاطر من آثاره ولقد فرغت من قراءة هذه الآثار وفي البال خاطر واحد لا انساه وهو اني ما قرأت سطراً من اي كتاب من كتبه الا استوقفتني قراءته وحملتني على التفكير فاذا اردتم ان تحيطوا بشيءٍ من عبقرية لغتنا فبادروا الى كتب الجاحظ التي تعلم العقل اولاً والأدب ثانياً [1] وسأذكر في المحاضرة الآتية نواحيه التي سأمضي القول فيها ·

في ٦ كانون الاول سنة ١٩٣٠

(١) كلمة ابن العميد ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net